العرب الأسبوعي Saturday 2008/8/23 السبت

أتيت إلى الكتابة من القراءة

محمد عز الدين التازي: أنصح الكتاب الشباب بألا يستمعوا إلى نصيحة أحد

❑ محمد سعيد الريحاني*

ولد الروائي المغربي محمد عز الدين التازي بفاس سنة 1948. حاصل على الدكتوراه في الأدب الحديث. يعمل أستاذا للتعليم العالي بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان. عضو عدة جمعيات وهيئات ثقافية. ترجمت بعض قصصه القصيرة إلى الفرنسية والأنجليزية والإسبانية والألمانية والسلوفانية، وترجمت روايته "مغارات" إلى الفرنسية. اختيرت روايته "أيام الرماد" من بين أفضل 105رواية عربية نشرت في القرن الماضي. جمعنا اللقاء به فكان الحوار بيننا كما يلي:

سؤال: إذا طلب من الأديب محمد عز الدين التازي إكمال صورته الإبداعية المرسومة في ذهن القراء، فكيف يقدم مسيرته وكيف يسترجع بداياته ويستحضر صداقاته الإبداعية؟

جواب: في مطلع الستينات من القرن الماضي، بدأت أحاول الكتابة وأنا تلميذ في الثانوي. حاولت أن أكتب الشعر تحت تأثيري بمقروءاتي في الشعر العربي القديم والحديث، لكني أدركت أن طريق الكتابة الشعرية لن يوصلني، فقد أدركت بحس خاص أن الرداءة هي ميسم ما كنت أكتب. كانت الرغبة في الكتابة تراودني بقوة، بدوافع داخلية وأخرى خارجية. الدوافع الداخلية غير مفسرة، والدوافع الخارجية تعود إلى أنني كنت أحيا وحيدا، أستشعر فراغا كبيرا في حياتي، لا أملكه إلا بالقراءة، والقراءة في هذه المرحلة لم تكن موجهة من قبل أحد، لذلك كنت أقرأ كل ما يصل إلى يدي من كتب. بدء من منتصف الستينات، تعرفت على مجلة الآداب ومجلة شعر البيروتيتين، وبدأت قراءاتي تتوجه نحو التراث الأدبي والفكري العربي، والأدب العربي الحديث، ومترجمات الأدب العالمي. أعجبت بقصص يحيا حقي ويوسف الشاروني ويوسف إدريس وقرأت كل أعمال نجيب محفوظ التي كان قد نشرها، وما كتب حولها من نقد، وخاصة كتابات صبري حافظ. كما قرأت الأدبيات الوجودية والماركسية والكثير من مترجمات الأدب العالمي. وفي هذه المرحلة، كتبت قصصا قصيرة وبدأت النشر سنة 1966 في الملحق الثقافي لجريدة الأنباء ثم في صفحة أصوات وفي الملحق الثقافي لجريد العلم. كنت ما أزال تلميذا في ثانوية القرويين بفاس، ومقروءاتي ولدت لدي صدمة كبيرة بالمقارنة مع ما كنا ندرسه. في نفس الثانوية وجد معي، وفي نفس المرحلة، القاص أحمد بوفور، والشاعران عبد العلي الودغيري وأحمد مفدي، لكني سبقتهم إلى النشر، إن لم أكن قد سبقتهم إلى الكتابة. كما تعرفت على الشاعر محمد بنيس في نفس المرحلة، وقبل أن ننتقل إلى كلية الآداب بفاس، وتعرفت على الشاعر محمد السرغيني الذي مدني بالكثير من الرعاية الأدبية.

في كلية الآداب، التي التحقت بها سنة 1967، تعرفت على الكثير من الكتاب والشعراء الشباب: أحمد المديني، محمد بنطلحة، المهدي أخريف، إدريس الملياني، إدريس الناقوري، أحمد زيادي، وكثيرين، كانوا مهووسين مثلي بأسئلة الكتابة. تعرفت أيضا على أساتذة تشغلهم قضايا النقد والإبداع، وهم: محمد برادة، حسن المنيعي، محمد الخمار الكنوني، أحمد المجاطي، وأحمد اليابوري، وإبراهيم السولامي. وهؤلاء الأساتذه، أصبحوا بسماحتهم وتواضعهم أساتذة وأصدقاء، فتحوا لي بيوتهم، وحبوا كتاباتي بالكثير من التشجيع. في سنة 1968 نلت جائزة جمعية البعث الثقافي بمكناس، التي كان الأستاذ حسن المنيعي هو المشرف عليها، وفي سنة 1969 نلت جائزة القصة القصيرة، التي نظمها الاتحاد الوطني للمغرب، فرع فاس، وكان في لجنتها الأساتذه: برادة واليابوري والمجاطي. علمتني هذه الوضعية: الاسترشاد بمقروءاتي، رفقة الأدباء الشباب، نيل جائزتين، الإصغاء إلى أسئلة الأدب والنقد التي كان يصوغها أساتذتنا من الغليان السياسي للمرحلة ومن الثقافة الطلائعية الجديدة التي كان يعرفها العالم. لذلك أقول إنني قد أتيت إلى الكتابة من القراءة، وبعبارة أخرى، لقد تعلمت الكتابة من القراءة.

سؤال: من بين الكتاب من جيل الرواد، يبدو أن محمد عز الدين التازي من القلائل الذين نالوا نصيبهم من المواكبة النقدية والتكريم والاعتراف في حياتهم. إلى ماذا تعزون ذلك؟

جواب: ليس من حقي أن أفسر ما قام به الآخرون تجاه أعمالي من مواكبة نقدية، أو احتفاء بشخصي، فهم الأجدر بأن يجيبوا عن هذا السؤال. أما من جانبي، فأنا لم أحرض أحدا على أن يكتب عن عمل من أعمالي، ولم أسع إلى الجوائز، إيمانا مني بأن الجوائز هي التي تأتي إلى الكاتب وليس هو من يسعى إليها، ولم أدفع بجهة من الجهات التي كرمتني، وهي كثيرة، إلى أن تقوم بهذا التكريم. إنني بالمناسبة، أشكر تلك الجهات مبادرتها التي هي محل تقدير مني، لكني غارق في مشاريعي الأدبية، ولست ممن يكتبون ويروجون بالدعاية لأعمالهم.

سؤال: الراحل، الشاعر الكبير محمد الخمار الكنوني، صاحب الديوان الشعري الوحيد: "رماد إسبيرديس"، في أحد حواراته نصح الشعراء الشباب بأن يكونوا مقلين في إنتاجاتهم. بالنسبة لمحمد عز الدين التازي صاحب أزيد من خمسين عملا إبداعيا في شتى الألوان الأدبية، من القصة القصيرة مرورا بالرواية والمذكرات ووصولا إلى أدب الأطفال، بماذا تنصح الكتاب الشباب؟

- جواب: كان المرحوم الشاعر الكبير محمد الخمار الكنوني قد وجه إلي نصيحة من نوع آخر، وهي أن أكتب باستمرار، وألا أنتظر نشر عمل حتى أكتب آخر. والمرحوم محمد الخمار كان قد حدثني عن رواية شرع في كتابتها، فهو نفسه، كسعي يوسف، وغيرهما من الشعراء، وجدوا في الكتابة السردية ما يغري بارتيادها. وحقا، فلقد كان محمد الخمار، إلى جانب أحمد المجاطي، شاعرين مقلين، يُقْطِّرَان قصائدهما ويعتصران معانيها وصورها ولغتها من تكثيف شعري دال وموح ورامز. ذلك كان توجههما في الكتابة الشعرية. أما بالنسبة إلي، وإلى كتاب وشعراء مغاربة آخرين، فالكم ليس دليلا على القيمة الأدبية للكاتب أو الشاعر، ومع ذلك، قليلون هم الذي وصلوا إلى تحقيق القيمة الأدبية بعمل واحد، كما حدث مع رامبو على سبيل المثال. إن الكَمَّ هو الطريق في رأيي، للوصول إلى النوع، أي إلى التنويع في الأشكال والمضامين. إن روائيا كنجيب محفوظا، وقد نشر أزيد من أربعين رواية، ما كان بإمكانه أن يُوَسِّعَ من عوالمه ومن بنائه للأشكال، وكذلك الأمر بالنسبة لروائيين عرب، كإدوار الخراط ،إلياس خوري، نبيل سليمان، ومغاربيين كواسيني الأعرج، أحلام مستغانمي، صلاح الدين بوجاه، محمود طرشونة، ومغاربة كمبارك ربيع، أحمد المديني، والميلودي شغموم. أنصح الكتاب الشباب بألا يستمعوا إلى نصيحة أحد، ففي مجال الكتابة الأدبية، لا شيء ينير الطريق غير تلك النصائح التي يوجهها الكاتب لنفسه، وهو يحفز وعيه النقدي، المرافق للكتابة، على التوجيه نحو يخفف من غلواء المغامرة، وما يُؤَجِّجُ للكتابة قوتها

الروائي المغربي محمد عز الدين التازي

الدلالية والجمالية. إن من يستحضر هذا الضمير لا يحتاج إلى نصيحة أحد، كما أن من يسترخص الكتابة هو الآخر، لا يحتاج إلى نصيحة أحد.

سؤال: كنتم من رواد الكتابة القصصية في المغرب، لكن سرعان ما تحولتم إلى الرواية، وقطعتم صلتكم بكتابة القصة القصيرة. هل القصة القصيرة مجرد عتبة لدخول عوالم السرد المطول؟

جواب: ليس صحيحا أنني قد قطعت صلتي بكتابة القصة القصيرة، فهذا الجنس الأدبي القائم على اللحظة، والتكثيف، والشاعرية، يظل دوما، جنسا أدبيا له قدرته على التقاط تفاصيل دالة من اليومي، وقدرته على ربط الصلة بالقارئ، من خلال النشر في الجرائد والمجلات. لم أعد أداوم على نشر قصصي القصيرة بالكثافة التي كانت في السابق، لكني ما زلت أجد في كتابة القصة القصيرة ذلك الافتتان القديم، وما زلت أخبر إمكاناتها التعبيرية والجمالي، كشأن صديقي، الروائيين مبارك ربيع وأحمد المديني، اللذين رغم انشغالهما بكتابة الرواية وبكتابات أخرى، ما يزالان على نفس الوفاء القديم لكتابة القصة القصيرة، وكشأن كتاب عالميين كإرنست همنغواي وأرسكين كالدويل، جمعوا بين الكتابة في الجنسين. الأمر ليس مفاضلة بينهما، فلكل منهما حدوده ووسائطه في التعبير. في أعمالي الكاملة، تسع مجموعات قصصية، اثنتان منهما لم يسبق نشرهما، ولدي مجموعة قصصية هي الحادية عشرة، تنتظر النشر.

سؤال: يعرف المغرب حاليا حركية غير عادية تهم جنس القصة القصيرة، يقودها في الغالب قصاصون شباب. هل ترتبط القصة القصيرة دائما بفترة الشباب، أم أن ثمة وعيا جديدا لدي القصاصين المغاربة بأهمية جنس القصة القصيرة؟

جواب: أتابع باهتمام ما يكتبه جيل جديد من الكتاب المغاربة، وفي كل الأجناس الأدبية، فللشعر طفرته الجديدة، وللقصية القصيرة أقلامها التي أشرقت بالكثير من النصوص الجميلة، ومن هذه الأقلام ما انضم إلى جمعيات فاعلة في تخصيب الكتابة القصصية، ك"مجموعة البحث في القصة القصيرة بالمغرب"، التي احتضنت الكثير من الأقلام المبدعة، وأصدرت العديد المجموعات القصصية المطبوعة بطابع التجديد، فضلا عنالكتب النقدية التي واكبت هذا الجنس الأدبي، ومجموعة" الكوليزيوم القصصي" التي نظمت عدة ندوات ولقاءات حول الكتابة القصصية، ونشرت كتابها الأول.

لكني لا أربط بين هذه الحركة وبين فترة الشباب، بل أربط بينها وبين الإشراقات السردية الجميلة التي يقدمها هذا الجنس الأدبي، وطاقاته الإبداعية في خلق اللحظة الاجتماعية والجمالية، وهو ما يشكل نوعا من الإغراء الذي يستقطب الكتاب والمبدعين.

- سؤال: هل يمكن اعتبار المغرب عاصمة مغاربية للقصة القصيرة، على غرار تونس كعاصمة للشعر، والجزائر عاصمة للرواية؟

جواب: الإبداع الأدبي، شعرا وقصة قصيرة ورواية، لا عاصمة له، فهو كوني، لأن خطابه يتجه نحو الإنسان أينما كان. ومع ذلك، فقد وجدت بعض الجهات الثقافية، في البلدان المغاربة، وفي المشرق العربي، اهتمت بالإبداع القصصي والشعري والرواية ونظمت له عدة لقاءات وندوات. وإذا كنت تسمي تونس عاصمة للشعر، فقد نظمت بها ندوات ولقاءات اهتمت بالكتابة الروائية العربية، وفي مدينة قابس خصوصا، التي أصبح لها تقليد عقد الندوات حول الكتابة الروائية العربية. وإذا كنت تسمي الجزائر عاصمة للرواية، فبها توجد جمعية "الجاحظية"، التي يرأسها الروائي الجزائري الكبير الطاهر وطار، وهذه الجمعية تنظم جائزة للشعر باسم الشاعر الجزائري الكبير مفدي زكريا، وقد نالها مؤخرا الشاعر المغربي إدريس علوش. أما وأنت تسمي المغرب عاصمة للقصة القصيرة، فقد نظمت بالمغرب عدة ندوات حول الرواية. إن البلدان المغاربية الثلاثة، وبلدانا عربية أخرى على رأسها مصر، تعرف التفاتا خاصا نحو الإبداع الأدبي، وفي كل الأجناس، كما في الكتابة النقدية، بعد أن ظهرت حركة أدبية تجديدية وتحديثية، شملت كل الأجناس، كما شملت النقد الأدبي، أسس لها وعي جديد بماهية الأدب، وتصويره لتحولات المجتمع، واشتغاله على بناء الأشكال.

سؤال: الأدب والنقد وجهان لعملة واحدة، لكنهما يظلان يتناوبان على القيادة، فمنذ أرسطو حتى القرن التاسع عشر، سيطر النقد الأرسطي وظل متحكما في الإبداع الأدبي والقراءة تحكما شبه مطلق، إلى أن انتفض الإبداع مع الثورة الرومانسية. هل تعتقدون أن الإبداع الأدبي في المغرب يقود النقد أم العكس، أم أن ثقافة حوار الصم هي السائدة؟

جواب: ظل النقد الأرسطي مؤثرا في كل النظريات النقدية التي جاءت بعده، سواء في الخطاب النقدي العربي القديم، أو حتى في النقد الجديد الفرنسي والأنجلوساكسوني. والأمر يرجع إلى التنظيرات الهامة التي جاءت مع كتابي أرسطو: "فن الشعر" و"فن الخطابة"، أو المفاهيم التي أحدثها كالمحاكاة والتطهير والباروديا وتقسماته لأنواع الأدب. وهي تنظيرات ومفاهيم استفاد منها النقد الجديد وطورها وأضاف إليها. كذلك كان النقد الأدبي يبني ذاته وامتداده على الأسس النقدية التي جاءت مع النقد الأرسطي، فقد ظلت الأعمال الأدبية في حاجة إلى الوصف، والتقييم، والتفسير، لأنها لا تغتني إلا بما يمارسه الناقد عليها من فعل للقراءة، وهذا الفعل القرائي، عندما يتجاوز الانطباعية، والاعتماد على البلاغة القديمة، في مواجهة نصوص تأسيسية لقيم وجماليات أدبية جديدة، فإنه يستفيد من الخلفيات والمرجعيات النظرية، وهو أيضا، يكتشف في تلك الأعمال صَوْغَهَا الجديد لمعنى الذات ومعنى العالم وبناء الأشكال، ليؤسس على ذلك خطابا نقديا يتجدد في تنظيراته ومفاهيمه ومصطلحاته.

مسألة تبادل التأثر والتأثير بين النقد والإبداع الأدبي تشبه علاقة البيضة بالدجاجة، أيهما أسبق، وهي تشبه الأدوار المتبادلة التي يقوم بها الممثلون على خشبة المسرح الواحد. مع ذلك، فإن هيمنة النقد على الإبداع، أو ما سمي بسلطة النقد والناقد، ظل ينتمي إلى مرحلة في تاريخ النقد الأدبي، هي التي ارتبطت بالحكم على الآثار الأدبية وتقييمها بأحكام القيمة، انطلاقا من الذوق الأدبي للناقد وثقافته. وكرد فعل على هذه الوضعية، ظهرت سلطة الإبداع، التي اخترقت سلطة النقد، وفي وضع ثالث عرفته أوربا استعادت العلاقة بين النقد والإبداع توازنها، فقد جاءت الحركات الرومانسية والسريالية بتنظيراتها التي اجتمع فيها نقاد ومبدعون، وكتب الشاعر بودلير عن مدام بوفاري لفلوبير، وجاءت الرواية الجديدة في فرنسا بنقاد روائيين جمعوا بين الكتابة والتنظير. مع ظهور النقد الجديد، باتجاهاته النقدية، لم تعد ثمة من خصومة بين المبدع والناقد، فالتنظيرات والمفاهيم أصبحت ذات صلة وثيقة بالمدَدِ الإبداعي وإجازاته النصية. أما في المغرب، فقد كَوَّنَ النقد الأدبي تاريخيته من المراحل التي عاشها، وهي مراحل ارتبطت بالتحولات التي عرفها النقد الأدبي في أوربا، فمن النقد الإيديولوجي الذي ظل يحاكم الأعمال الأدبية بمواقع كتابها إلى نظرية الانعكاس التي جاء بها لوكاتش، إلى البنيوية والبنيوية التكوينية والنقد الباختيني والنقد السيميائي والتفكيكي والهرمينوتيقي والتأويلي الخ... هو مشهد نقدي ساهم في تكوينه نقاد مغاربة تكثر أسماؤهم كما تكثر أسماء المبدعين الذين تعرضت أعمالهم لذا النقد، والذين كتبوا الشعر والرواية والقصة القصيرة. فمن المشرحة التي تعرضت إليها النصوص، إلى الغلواء في ربط الكتابة بنخبوية وبورجوازية الكاتب، إلى الوصف البنيوي، إلى المقاربة السيميائية، الخ...

في هذا المشهد النقدي، الذي عرف تاريخيته وتطوره وتقاطعاته، نجد أن النقد المغربي الذي ارتادته أقلام نقدية مغربية كثيرة، اجترحت نصوصا مغربية وعربية، كان وما يزال يبحث عن نفسه، مستلهما، أو متكئا على بعض الصنافات النقدية التي تنتمي إلى إنجازات نقاد غربيين أقاموها على نماذج من الأدب الغربي. لكن نظرية الأدب، بشقها الذي ينتمي إلى الشعرية، وهي تبحث في المبادئ العامة للأدب، وفي الأدبية،تردم هذه الهوة بين نص كتبه مغربي أو غير مغربي، كما أن علم السرد، بما أرساه من قواعد لدراسة السرد الأدبي، لا يميز بين نص كتبه مغربي أو غير مغربي. لذلك، فقد وجد في المغرب نقد أدبي يقترب من الدقة العلمية، المبنية على قواعد هذا النقد، كعلم، ومن احترام خصوصية الأعمال الأدبية، على سبيل الكشف عن هذه الخصوصية. ليس ثمة من حوار للصم بين النقد الأدبي، وبين الإبداع الأدبي في المغرب، بل ثمة تحاور بين النص والقراءة. هذه هي القمة التي وصلت إليها العلاقة بين النقد والأدب، وهي لحظة أدبية مشتركة بين النقاد والمبدعين، فكما أن النقد يبحث عن سبيل لتطوير أدواته وآليات اشتغاله، فالإبداع الأدبي يشتغل أيضا، بتطوير توسيعه للقاعدة الاجتماعية التي تشكل موادا بانية لأعماله، كما يشتغل على تطوير التقنيات الأدبية، والاشتغال على إستراتيجية الأشكال، التي منها يكتسب أدبيته.

سؤال: إذا طلب منكم رسم جغرافية الرواية عربيا وجغرافية الرواية مغربيا، ما هو سلم التصاميم الذي سوف تستعمله؟

جواب: الرواية العربية، ومنها الرواية المغربية، تعرف تواترا كبيرا في النمو، واطرادا في نشر نصوص متميزة، وهذا ما يلفت النظر إليها، فالتحولات الكبرى جارية في الإنجازات الروائية العربية والمغربية، بتدفق نصوص قوية على مستوى الاشتغال الذات، وتحولات المجتمع، والذاكرة الجمعية، والمنسي، والتاريخي المستعاد عبر الكتابة. إن ما يكتبه الروائيون العرب، والمغاربيون، والمغاربة، من أعمال روائية، وفي إنجازاته المتميزة، هو رهان على اشتغال روائي يجترح الذات ومجتمع الذات، ويوسع من آفاق الممكن والمحتمل والمتخيل، ولعل هذه الإنجازات لا تتميز بكونها طفرة أو موجة لها توقيتها الذي تتراجع فيه، بل إنها تتميز بأنها اشتغال على الكتابة الروائية، يعي يتحولات المجتمع، وبالتاريخ الذي صنع هذه التحولات، ويعي أيضا بأن الرواية هي كتابة تكتب ذلك عبر اللغة، والمتخيل، وعبر اللعبة السردية. هذا الرهان، هو استعادة للذات العربية، والهوية العربية، من خلال تشكيل لحظاتها الصعبة والاستثنائية، من خلال التخييل الروائي. بالمناسبة، أذكر أعمال بعض أعمال الروائيين العرب والمغاربيين والمغاربة، قد أسست لمعنى الحفر في أركيولوجية مجتمع عربي له نداءات الذاكرة الخصبة، وجراح التاريخ وجراح الذات و الجسد، ولمتخيله الشعبي. إن الرواية العربية اليوم، ومن ضمنها الرواية المغاربية، والمغربية، تتجه نحو اشتغال أساس على المجتمع ومجتمع الذات، وعلى الكتابة، باعتبارها وعيا شقيا بالمجتمع ومجتمع الذات، كما تشتغل على الكتابة باعتبارها صنعة روائية وبناء لإستراتيجية الأشكال. إذا كان هذا التصور لا ينسحب على كل الأعمال المنشورة، فهو ينسحب على الأعمال التي اكتسبت هذه الخواص الاجتماعية والجمالية، وهي كثيرة، والأسماء التي أنجزت أعمالا روائية بكل هذا البهاء، كثيرة، عربيا، ومغاربيا، وعربيا.

سؤال: ما هو أقرب أعمالك إلى وجدانك، وما هو العمل الذي تمنيت لو عاد الزمن إلى الوراء، لتعيد كتابته وتنسيقه؟

جواب: في العشرين رواية التي كتبتها لحد الآن (ثمانية عشر رواية منها منشورة، وروايتان بصدد النشر)، لا أجد سبيلا للجواب عن هذا السؤال.